İLAHİYAT FAKÜLTESİ DERGİSİ 11:2 (2006), SS.19–29

السلم في العالم و احترام المقدس

استخلاصات أزمة الصور الكاريكاتورية[1]

(Dünya Barışı ve Kutsala Saygı/World Peace and Respect for Holy)

Enbiya YILDIRIM[2]
Cumhuriyet Üniversitesi İlahiyat Fakültesi

Özet

Kutsal değerler, insanı hayata bağlar ve ona var oluşunun lezzetini tattırır. Bu nedenle, insana değer vermek onun önem atfettiklerine saygı göstermekle içiçedir. Saygı göstermek önemli olmakla birlikte önemli olan bir başka husus da, farklı kültürlerdeki insanların kutsallarına nasıl değer verdiklerini göz önünde bulundurmaktır. Bu husus gözetilmeden insan kendi kültür ve geleneğindeki yaklaşımı değişik inanıştaki insanların kutsalları için göstermeye çalışırsa bu çok farklı algılanabilir. Aşağıdaki makale, son dönemde yaşanan karikatür krizi çerçevesinde Müslümanların peygamberlerine bakışını ele almakta, krizin arka planını sorgulamakta ve bu tür sorunların yaşanmaması için çözüm yolları önermektedir.

Anahtar kelimeler: Kutsal, karikatür, saygı, peygamber, barış, inanç, fundamentalizm

Abstract

Holy values bind man to life and make him/her taste the enjoyment of his/her existence. Therefore, appreciating humanbeings has close connection with respecting to those that are important for humanity. Another important thing in this subject is to take into consideration how the people in various cultural environments are giving importance to their sacred values. Without

[1] قدم هذا المقال الموسع على شكل ورقة عمل مختصرة في *مؤتمر(الأمن و الديمقراطية و حقوق الإنسان) الدولي* الذي نظمته جامعة مؤتة، في عمان، العاصمة الأردنية،والمنعقد في الفترة ما بين 10-2006/07/12.

[2] كاتب هذا المقال يحمل درجة الدكتوراة في علوم الحديث، برتبة استاذ مشارك، ويعمل حاليا مدرسا في كلية الإلهيات بجامعة الجمهورية .

considering this fact, if a person tries to make the same approach belonging to his own culture to other sacred things belonging to people in different beliefs, he/she can be misunderstood. The following article handles the approach of Muslim people to their own Prophet within the frame of the crisis recently caused by some cartoons in the West and questions the background of this crisis as well as offering some ways of solution so that these kinds of crisis are not lived once more.

Key words: Sacred, cartoon, respect, prophet, peace, belief, fundamentalism

لكل انسان متطلبات وحاجات لا غنى له عنها، وياتي الاعتقاد والدين في اعلى سلم هذه الحاجات والمتطلبات.

ومن هنا يجب ان ينعكس الدين في جميع مجالات حياته وان يكون جزءا من نشأة الانسان وبنائه. ان الدين يمثل فطرة الانسان وعلى أساس هذه الفطرة يجب ان يكون فهمنا له.

ويجدر بنا ان نجعل المقدسات ضمن اطار منظومة المعتقدات وان ننظر اليها في هذا الاطار، وبالتالي يجب علينا أن نحترمها ونعتبرها متمّمات لحياة الانسان التي تكتسب رفعتها من هذه المقدسات، فهي تحمي وتخرج البشرية من عزلتها. وتعتبر بمثابة طوق النجاة للانسان التائه الحائر. وبهذه الوظائف المهمة يكون الانسان صاحب دين وتجعله المقدّسات في مرتبة رفيعة.

ولذلك نجد الانسان ينبهر ويعجب ويعتز بتاريخه ومعتقداته ولا يقبل المساس بها حتى لو كان غير ملتزم دينيا. ويشهد التاريخ أن الكثير من الهجرات (كهجرات أصحاب محمد ص. إلى الحبشة بسبب الضغوط[3]) والحروب كانت قد نشأت لأسباب دينية رغم ان الحكام ليسوا متدينين.

1- مكانة الرسول ص. في الدين الإسلامي

تأخذ المقدسات في الاعتقاد ككل مكانة هامة، وتكون النظرة إلى المقدس متباينة ومختلفة من حضارة الى اخرى وفق قيمها ومعتقداتها الخاصة بها. ولتوضيح ذلك نضرب مثلا عن اختلاف المعتقدات حول صورة النبي وتصويره . فمن الجائز عند بعض اصحاب المعتقدات غير الاسلامية ان يقوموا بتصوير نبيهم في فيلم أو كليب أو نكته بدون أن يعد ذلك تحقيرا أو عدم احترام للمقدس. ولكن نجد انه في اطار معتقد آخر، وبغض النظر عن الهدف من تلك الأعمال، فإن مجرد رسم نبي اصحاب المعتقد الاخر يعتبر ذنبا كبيرا، كما هو الحال عند المسلمين.[4]

من هنا يتبين الخطأ الكبير الذي نرتكبه وخطورة الموقف، الذي يمكن ان يتطور الى ازمة، عندما نقيّم أفعالا داخل ثقافتنا بمعايير ثقافة أخرى.

---

[3] أنظر لمزيد من المعلومات : *البخاري* ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة الحبشة.

[4] في البداية يجب علينا أن نقدم كيفية نظر الإسلام في التصوير. قد إتفق العلماء على أنه يجوز تصوير كل ما ليس له روح من الجبال و البحار و الأشجار و الأودية و غير ذلك كما يجوز اتخاذه. أما تصوير ما له روح فإن كانت الصورة مجسمة لها ظل فيحرم بالاتفاق و لم يخالف في ذلك أحد. و إذا لم تكن مجسمة فالجمهور على أن تصويرها حرام أيضا. أنظر: خليل عبد الكريم كوننج، الموسوعة الفقهية الميسرة، إسطنبول، المكتبة الحنفية، II/65-6. و قال النبي ص " من صور صورة كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ وعذب" (النسائي، الزينة، رقم الحديث: 5360) ، "لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب و لا صورة" (أحمد بن حنبل، *المسند*، IV/28).

ولعل الحضارة الإسلامية هي الاكثر اختلافا وتشددا في مسائل العقيدة واحترام المقدسات.فتوحيد الله وتعظيمه ووحيه ورسوله تعتبر اهم أساسيات الإسلام. فالرسول ص. يتميز بمكانة واحترام خاص في العالم الإسلامي حتى إن المسلمين يجعلون النبوة في اعلى مراتب المقدسات، من منطلق أن الأنبياء وخصوصا رسول الله محمد ص. هم أناس معصومون فلذلك جعلهم الله رسلا إلى البشرية وبدونهم ما وصلت رسالات الهداية إلى الناس. لذلك تأتي مُؤَسَّسَة النبوة في مقدمة مقدسات الإسلام. لأن النبي رسول الله وهو وسيط وحيد يبلغ حكم الله الي الناس.[5]

يقتدي المسلمون منذ قرون بمحمد ص. ويسعون لتعلم ادق تفاصيل حياته يوما بيوم. فمن مصادر مكتوبة يعرف المسلمون كيف كان أصحاب النبي يتعاملون معه وماذا يجب على المسلم ان يفعل تجاهه من سلوك فيه كل التعظيم والاحترام. ان معاشرة الذين كانوا معه وإحترامُهم له والتضحية بنفوسهم وبذلُهم كلَّ ما لديهم له، كل ذلك يعطي دوافع قوية وايحاءات لتشكيل كيفية فهم المسلمين المتأخرين للنبيَّ. وهو ما توارثه المسلمون وعاشوه لقرون طويلة.

وإذا نظرنا إلى ثقافة المسلمين نرى أن نظرتهم إلى نبيهم تختلف تماما عما هو الحال عليه في الغرب. ففي أول الأمر نجد أن سيرة الرسول بكل صفحاتها متوفرة أمام عيون المسلمين. يكاد المسلمون يقدرون على كتابة حياة محمد ص. يوما فيوما تاريخيا. لقد كتب السابقون حياة الرسول بأدق تفاصيلها كما كتبوا أحاديثه وأفعاله وتصرفاته بل والحالات التي سكت فيها عن التعليق على حادثة حصلت امامه ونقلوها من جيل إلى جيل بحيث أضحى المسلم يعرف أدق التفاصيل عن حياة نبيه من غير شك أو لبس. اي أن المسلمين يعرفون حياته بكل التفاصيل من أكله و من شربه ونومه إلى طريقة معاشرته لعائلته الى أموره في الدولة.[6] هذا فارق مهم جدا.[7]

لقد قدّم القرآن محمدا على أنه أسوة حسنة.[8] وجعل الإقتداء به أمراً يجب على المسلم السوي الاقتداء به وله الأجر والثواب إن قام بفعل أمر بفعله الرسول لأن الرسول هو الأسوة الحسنة لكل المسلمين و لكل الناس. وقد اخذ المسلمون دينهم عن نبيهم بشكله العملي حيث ان الأوامر الكثيرة الموجودة في القرآن تأتي مجملة، فمثلا يأمر القرآن المسلمين أن يقيموا الصلاة ويحجوا ويصوموا ولكنه يترك تبيين كيفية أداء هذه العبادات عمليا للنبي ص. وقد بين الله الوظيفة الكبيرة التي يقوم بها النبي حيث قال مخاطبا اياه "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم".[9] وفسر الرسول آيات ربه للمسلمين لكي لا يختلفوا في التفاسير وأفهمهم أوامر ربهم ونواهيه. ومن هنا تتجلى مهمة الرسول الهامة حيث يقول انما بعثت معلما.[10] فالإنسان الوحيد الذي علّم المسلمين كيفية أداء هذه الأعمال هو الرسول محمد ص. وبدونه ما كانوا ليعرفوا كيف تؤدى الصلاة ولا الحج ولا الصوم ولا

---

[5] يأمر الله اتباعه بذلك في آيات كثيرة مثل: النساء 13-14، 115، المجادلة 9، النور 54...

[6] إذا دققنا في كتب الحديث و كتب السير سنرى هذه الظاهرة.

[7] هذا هو الفرق الكبير بين الإسلام و بين الديانات الأخرى. فإذا ألقينا نظرة على الأديان الأخرى المتواجدة على الأرض، غير الإسلام، نجد أنه لا توجد معلومات كثيرة لديهم عن حياة أنبيائهم. فمثلا؛ إذا نظرنا إلى عيسى الذي يقبله الإسلام نبيا حقا، لا نجد أي مستند و نرى أن المعلومات الواردة عن حياته في كتب المسيحيين عبارة عن الذكريات التي كتبت بعد عشرات السنين بعد رفع عيسى ص. ونظرا للتاخر في كتابة سيرة النبي عيسى ولعدم التوثيق العلمي كما عند المسلمين فان القصص المذكورة عنه تبقى مشكوك في
صحتها.

. وتجدر الإشارة إلى أن الكثيرين من أصحاب الديانات الأخرى لا يعرفون الكثير عن حياة أنبيائهم وهذا يجعل بعضهم يستهينون بالأنبياء ويستمرؤون الاستهانة بهم. إذا جمعنا كل هذه الحقائق والوقائع نرى أن للنبي في الأديان الاخرى مكانة رَمْزية فقط لا قدسية. و حتى من الصعب أن يقال أن في الأديان الكبرى غير الإسلام يوجد توافق على صورة النبي. لأن سيرة النبي وأوامره و نواهيه لم تنتقل عندهم إلى يومنا هذا بشكل كامل وبالتالي هذا يؤدي الى التقليل من قداسة النبي ومكانته.

[8] "و لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله و اليوم الآخر" الأحزاب 21.

[9] النحل 44.

[10] ابن ماجه 225.

الزكاة.[11] فهو في الحقيقة قرآن حي. لذلك كله صورة النبي عند المسلمين ليست ضبابية بل واضحة. وهذه الصورة هي أمر من الله إلى الناس بينها لهم من خلال خاتم رسله. وفي نفس الوقت هي إظهار للدين في شكله الحقيقي والتطبيقي، ومن أجل ذلك فهي معظمة ومقدسة جدا. وتعتبر هذه الصورة سنام الدين والحياة الاجتماعية في الإسلام. وهي الصورة التي تقدمها الحضارة الإسلامية للإنسانية.

ادى ذلك كله الى ان يكن المسلمون حبا عظيما للنبي اكثر من غيره من الأنبياء بل ان محبته من محبة الله وطاعته من طاعة الله، و لكن من تمام إسلامهم أن يحبوا محمدا حبا خاصا يضاف اليه في نفس الوقت إيمانا كاملا ببقية الانبياء. فبقدر حبهم لمحمد ص واحترامهم له فهم يكنون نفس الحب والاحترام لعيسى وموسى وإبراهيم عليهم السلام بل انهم يؤمنون ويحترمون كل الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمد ص، وهذا جزء من إيمانهم.[12]

ونستظهر حبهم للانبياء من خلال كثرة تسمية صغارهم بأسماءهم. ويمكن أن يبين لنا إحصاء ما أن الملايين في العالم الإسلامي يحملون اسم موسى وعيسى وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء فالعالم الإسلامي هو عائلة كل الأنبياء. ويتأكد ذلك في القرآن الكريم في أكثر من موقع وآية:

"لا نفرق بين أحد من رسله".[13]

"إنّا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا".[14]

":قولوا آمنا بالله، و أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق ويعقوب و الأسباط، و ما أوتي موسى و عيسى، و ما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم."[15]

ونتيجة لذلك فان الثقافة الإسلامية لا تقبل المزاح في معتقداتها ومن تلك المعتقدات، الله والرسل والكتب وبقية المقدسات.

وبما ان محمدا ص يتميز بهذه المكانة الكبيرة في العالم الإسلامي ، فلا يجب التغافل عن هذا التصور عند التعامل مع العالم الإسلامي. فمن الخطأ الكبير أن يقيم انسان ما، انطلاقا من - ثقافته هو - ومعتقداته، معتقدات العالم الإسلامي. ان ما قد يعتبر غير ذي قيمة في ثقافته قد يكون من ركائز الدين الإسلامي. وبوضوح أكثر فانه لا يوجد في الدين لدى المسلمين ما يقبل التندر أو المزاح.[16]

ونخلص إلى أنّ محمدا ص. كخاتم للانبياء يتميز بمكانة خاصة جدا في الإسلام لا يمكن مقارنتها بأية مكانة في دين آخر. فكل سلوك أو حركة تجاهه هي بالأساس تهجم على الدين الإسلامي. لذلك يتأثر المسلم تأثرا عميقا من الاساءة للرسول أكثر من تاثره على نفسه لأن مقدساته

---

[11] لقد أثبت القرآن أن الرسول ص معلم للناس و البشرية، على أميته و صحراوية بيئته. قال الله تعالى: "هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين." (الجمعة 2). و قال تعالى: "و أرسلناك للناس رسولا و كفى بالله شهيدا." (النساء 79). و أنظر: عبد الفتاح أبو غدة، الرسول المعلم و أساليبه في التعليم، حلب-1997، ص 8.

[12] وكان الرسول ص يمنع أصحابه من تخييره على الأنبياء. و انظر: *البخاري*، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص.

[13] البقرة 284.

[14] النساء 163.

[15] البقرة 136.

[16] مثلا نرى في الغرب أن بعض الناس يمثلون الرسل في كلبّات الموسيقى وفي الأفلام وفي التماثيل بصورة لا يقبلها الدين الإسلامي أبدا. لقد رأينا أفلاما يظهر فيها أشخاص يؤدون دور عيسى ص. بأشكال مضحكة أو مزرية وهذا ما يرفضه الإسلام و المسلمون.

تُمَس بتلك الاساءة. والإنسان بطبعه لا يسمح بتدنيس مقدساته مهما كان معتقده فما بالك إذا كان هذا المقدس قدوة حسنة عند من يعتقد به في كل نواحي حياته. هذا الحافز الذي هو الذي دفع عمر رضى الله عنه إلى طلب قطع دابر الأشخاص الذين لم يحترموا النبي ص. وشتموه وإلى معاقبة الناس الذين آذوا الرسول ص.[17] فأي اذى لرسول الله ص. هو اذى لكل المؤمنين به.[18] بل ان المسلمين إذا سُخر واُستهزأ بنبيهم بشكل من الأشكال يتأثرون أكثر من الطعون التي تمسهم ويَنفعلون بقدر لا يمكن معرفة عواقبه لأنهم يعتقدون أن هذا اعتداء على اهم مقدساتهم ولو لم تكن النيةُ كذلك، فالمسلم يحسه هكذا. لذلك فإذا أُنفعِل إنفعالا شديدا، يجب مراجعة اسباب وعوامل هذا الإنفعال بدل مناقشة الانفعال نفسه.

2- العالم الإسلامي من منظور الغرب

سننظر في كيفية فهم الغرب للعالم الإسلامي، قبل أن نتعرض إلى نشأة أزمة الكاريكاتير، وذلك انطلاقا من اختلاف نظرة المسلمين إلى النبي عن فهم الحضارات الأخرى لشخصيته. وعندما ندقق في هذه النظرة سوف نستطيع حل أزمة الكاريكاتير.

الغرب ينظر إلى العالم الإسلامي من ثلاث زوايا. وتعد النظرة الموجودة داخل العالم الإسلامي أول هذه الزوايا. خاصة أنه يمكن التأكيد على أن المسلمين وفي العصرين الأخيرين قد تركوا انطباعا جيدا، وهنا يجب ان نوضح ان المسلمين هم المسؤولون اولا وآخرا عن نظرة غيرهم لهم، و مع ذلك إن العديد من الدول الإسلامية لم يمض على استقلالها القرن. إن هذه الدول قد بقيت تحت نير الاستعمار لفترات طويلة وان معظمها قد وضعت حدودها باستعمال المسطرة. وحتى بعد نيلها الحرية فإنها لم تخل من التأثيرات الأجنبية التي تخرق هذه الحرية وتشرع للاستعمار من جديد إلى يومنا هذا. وهو ما يجعل من القوى الأجنبية مسؤولة عن أية نظرة سلبية توجه إلى تلك الدول الضعيفة.

إن إلغاء هذه الصورة السلبية عن العالم الإسلامي ليست مسؤولية المسلمين فقط كما أنهم لا يمثلون المصدر الوحيد لهذه الصورة السلبية. وذلك لان عالم الحضارة الإسلامية في العصور الزاهية قد أقام الشهادة على ذلك وما زال بإمكانه إضافة الكثير.

الزاوية الثانية التي ينظر من خلالها الغرب إلى العالم الإسلامي هي في أنه يهدد الغرب ليكون هذا الإسلام هو أداة التهجير، هذه النظرة في أوروبا تنعكس على أمم مختلفة. والنظرة واحدة في أوروبا لهذه الامم المختلفة ككل سواء المغاربة والجزائريين في فرنسا أوالهنود والباكستانيين في انجلترا أو الأتراك في ألمانيا وكذلك القادمين من الدول الإسلامية الأخرى. إن الذين قبلتهم أوروبا من أجل تلبية حاجتها إلى العمال قد أوجدت لهم وضعية خاصة جعلتهم يحسون دوما بالعزلة، فبجانب عدم التعلم والجهل باللغة وجد حرمان كبير من الحقوق الاجتماعية والثقافية أدى إلى ظهور نموذج مختلف من البشر لم يستطيعوا أن يكونوا أوروبيين ولا منتمين إلى أصولهم. وكانت الحلول التي تقترحها الإدارة لهذة المشكلة تتمحور حول الكلمات الثلاث التالية: الإندماج، العزل، الاستيعاب، ولا يحتوي هذا التصور على أيّة إمكانية للتعايش بين هذه الشعوب المختلفة. ومهما يكن التصور فان صورة المهاجرين ليست ايجابية.

اما النظرة الثالثة فقد ظهرت بعد هجوم 11 سبتمبر وهو واقع جديد ومرعب. إن هذا الإرهاب الذي اتخذ من الغرب والغربيين هدفا له حتى وان كان الذين قاموا به مسلمين يجعل من الربط الوثيق والمماهاة بين الإسلام والإرهاب خطأ فادحا خاصة وانه يربط دائما بين الإسلام وذلك الهجوم عند ذكره.

---

[17] أنظر لمثال واحد: أحمد بن حنبل، *المسند*، III/210.

[18] الرسول نفسه كان يشبه المسلمين بالبنيان المرصوص وكان يطلب منهم أن يشدوا بعضهم بعضا. و انظر: *البخاري*، كتاب الصلاة ، باب تشبيك الأصابيع في المسجد وغيره.

ومن أجل ذلك بدأت تظهر بعض المفاهيم مثل الإسلام الإرهابي والإسلام الأصولي والاسلام الفاشي في الايام الأخيرة وما شابهها . إن ما قامت به الصور الكاريكاتورية هو محاولة لإظهار التماهي بين الرسول ص والإرهاب.

يمكن القول بأريحية أن هذه النظرات الثلاث ليست بمريحة. وتوجد في العالم الغربي صورة أبأس و أكثر تخويفا وترهيبا من الإسلام وهي الصورة التي بقيت تتكون لقرون عديدة.

لقد بذلت في إطار الأعمال الاستشراقية جهود كبيرة مستهدفة نفي صفة الدين التوحيدي والسماوي عن الإسلام .[19] فقد اعتبرت الإسلام من إنشاء محمد ص . ولاجل ذلك فقد كانوا يسمون الإسلام بالمحمدية، وربطوا دائما بين محمد ص والسيف والشدة . بل إنهم يجمعون آيات الجهاد من القرآن الكريم ليقدموا الإسلام على أنه دين الحرب والعنف. إن هذه العوامل مجتمعة تجعل من الصورة التي تقدم عن المسلم صورة منفرة عنه . ان برنارد لويس في حديثه عن أهم الشخصيات في التاريخ يشتكي بأنه لم توصف أية شخصية بشكل سيء وفاشل في الغرب مثلما فعل مع محمد ص. ان الكتاب الغربيين ولزمن طويل انحرفوا كثيرا في استعمال أسوأ التعابير في إطار تقديم صورة الرسول ص. فإذا وجدوا أية حادثة طوال حياة النبي ص يمكن الاعتراض عليها فإنهم يسلمون بذلك كواقع وحقيقة.[20] ونتيجة لذلك فان الغرب قد نقل هذه المعارف إلى مجال التصديق والتسليم. ولأجل ذلك فانه سواء في أمريكا أو أوروبا فالإسلام يعتبر وباء ولا يفهم إلا بما هو مخالف لجوهر الإسلام الحقيقي. فهو لديهم لا يعتبر إلا إرهابا.

3- خلفيات أزمة الصور الكاريكاتورية

إننا نعتبر الصور الكاريكاتورية التي نشرت في الصحافة الدانماركية ثم في قسم من الصحافة الغربية ليست إلا عملا على خلق الصراع بين الأديان والحضارات. فقد كان الدافع لها هو المس بمقدسات الآخرين و يتوضح ذلك عندما نعلم أن نفس الصحيفة قد رفضت نشر صورة كاريكاتورية صغيرة عن عيسى عليه السلام. ولا يمكن قبول الادعاء بان الصحيفة لم تكن تعلم بحساسية مثل هذا الموقف لدى المسلمين خاصة وانه يعيش جالية كبيرة منهم في تلك البلاد. ولذلك لا يَظْهر نشر هذه الكاريكاتُورات كشيء بسيط وعادي. إن تقييمنا لهذا التفكير يدفعنا إلى القول أنه يجد في المسيحية وفي العالم المسيحي انجذابا واعيا نحوه. وذلك لأنه ما كان يجب أن يستهان بالرفض والنقد الذي جوبهت به الصور الكاريكاتورية في كامل انحاء العالم .

إن من أولويات تفكيرنا في إطار الحوار ما بين الأديان في هذا العصر الشد على القائمين على الدين من أجل استبعاد كل المثيرات. وإن القائمين على هذه البرامج واجب عليهم التقريب بين الناس والتأسيس لتسامح أكثر في النظر والتعامل مع المعتقدات المختلفة، وعلى هذه الأعمال أن تتواصل حتى تحد من الهوة بين الحضارات. إن تلك الصور والسلوكات ليست الا أيديولوجيا تهدف إلى تقسيم العالم من جديد إلى معسكرات، خاصة تلك التي تتعامل مع الإسلام كمرض يجب التخلص منه.

إن الكثير من التصريحات في الغرب ومن تقييمات السياسيين دافعت عن كون تلك الممارسات تمثل جزءا من الحرية في الغرب. فبدلا من تلافي هذا الخطأ ومحاولة تجاوزه اعتبروا ذلك ممارسة للحرية وهو ما أدى إلى أن جعل الغربي يتهجم على مقدسات غيره من المعتقدات ولا يعاملها

---

[19] فقد عقد مؤتمر في تركية حول بحوث المستشرقين و طبعت ورقات الأعمال في كتاب باسم *قراءة الإستشراق من جديد* (*Oryantalizmi Yeniden Okumak*) *Batı'da İslam Çalışmaları Sempozyumu*, Ankara-2003. و أعدت مجلة المعرفة (Marife) التي تنشر في تركية عددا خاصا للإستشراق باسم *الإستشراق* (*Oryantalizm*). العام : 2002 ، العدد : 3.

[20] أنظر إلى William Montgomery Watt, *Muhammad at Mecca*, (Oxford: Calenderon Press, 1953), pp. 52.

باحترام مثل مقدساته. وبمعنى آخر الإعلاميون قاموا بتقييم معتقدات الآخرين و السياسيون عملوا على جعل الحرية غطاء لذلك.

هل يمكن ان ينظر العالم الإسلامي إلى ذلك بترحاب؟!

علما بان الذين يدافعون عن الكاريكاتير المحقر للنبي ص يكونون جبهة ضد فيلم الرسوم المتحركة عن البابا في ذات الوقت.[21] إن النظرة الحيادية لن تعتبر ذلك حرية أو حرية صحافة بل على اساس ما خفي وراء تلك التصريحات .إن من أهم مبادئ قدسية الحياة الخاصة والذي يمثل الجانب الأهم فيها هو حماية المعتقد الديني وخاصة عندما يكون الموجود في هذا الموضع هو رسول المسلمين محمد ص .

لا يمكن التغاضي أبدا عن أن الحرية عنصرا مهما في إطار النظام الديمقراطي ومبدأ أساسيا لا يمكن تجاوزه بأي شكل من الأشكال. ولكن هذه الحرية لا يمكن أن تتسع إلى درجة السماح بتحقير مقدسات الغير. وبناء على ذلك فانه يجب النظر في معنى حدود الحرية لانه لا توجد أية حرية تبيح الاستهانة بمقدسات الغير وحقوقهم. ويمكن النظر إلى حرية الصحافة بنفس الطريقة فهي قيمة عالمية. ولكن الصحافة وفي إطار هذه القيمة هي مهنة تجعل من أس مبادئها احترام المقدسات بل تذهب إلى الدفاع عن ذلك.

أولا ننبه إلى أنه من المفروض على الصحافة في الغرب والكثير من الدول المتقدمة ومن واجبها إظهار احترام جميع المقدسات كما تجد القيم المسيحية كل الاحترام. ولماذا نجد ان القول في أية دولة غربية أن النازيين لم يقتلوا 6 ملايين يهودي ، أو أن الهوليكوست خرافة يعرض صاحبه إلى العديد من التبعات القانونية في حين في ذات الوقت نجد ان التعامل مع أزمة الكاريكاتير غير صادق ولا خالص.

إن كل ما أثبتناه سابقا يجعلنا نميز بين التحقير والنقد وبدون ذلك فإننا لن ندرك هذه التوضيحات. انه لمن الأساسيات أن يتم القيام بالنقد حاضرا ومستقبلا في الإطار العلمي ولا يكون الهدف هو التهكم وتحقير الغير.

4- فشل المسلمين في الامتحان

و فيما يتعلق بردة الفعل الشعبية في العالم الإسلامي بعد أن تمّ الدفاع عن نشر الكاريكاتير باسم الحرية. يمكن ان نتفهم ردة فعل المسلمين والمتدينين وتأثرهم باعتبار ذلك جزءا من حبهم للرسول ص. وذلك كونه جرحت مشاعرهم واستهدفت بالتحقير مقدساتهم وبشكل خاص أهم شخصية لديهم.

تعبر هذه الرسوم عن استبداد هذه الثقافة ومحاولة فرض هيمنتها وهو ما تعبر عن رفضه في ذات الوقت ردة الفعل هذه، انها ثقافة هيمنة اذ تحاول ان تجعل الكل شبيه وتابع لها. ولاجل ذلك فهي ترفض ثقافات الشعوب الأخرى التي تريد ان تكون شامخة وأن تدافع عن مقدساتها.

ان الإنسان بطبعه يتمسك بثقافته وأصله وهويته وبالتالي فالعمل على محاولة المس بها يمثل زلزالا ويقابل باشمئزاز وقهر واحتقار للغرب. ويتوضح الوضع أكثر عندما نضيف الى ذلك مخلفات الاستعمار وآثاره العميقة في نفوس المجتمعات الاسلامية وضحايا ذلك الاستعمار. وفي نفس الوقت فان المجتمع الناضج يفرض احترامه على الذين يريدون أن تكون العظمة لهم فقط ، ويقوم بذلك رافعا صوته دون أن يمس ذلك من هيبته.

[21] هنا ممكن أن يأتي ببال بعض الناس ان الذين يفعلون ذلك هم ليسوا ممثلي الأوربيين كلهم. هذا كلام صحيح من جهة و لكن إذا وقعت هذه الأشياء السيئة في بلد أو في قارة ، معنى ذلك أن الذين قاموا بذلك يجدون جوا مناسبا لأفعالهم الشنيعة والسكوت علامة الرضا.

وبناء عليه نرى ان المسلمين، المحقين في ردة فعلهم على الصور الكاريكاتورية، لم يصيبوا في طريقة تعاملهم مع المشكلة. ويمكن لنا أن نقول أن المسلمين لم ينجحوا في هذا الإمتحان نسبيا بسبب أنهم لم يضبطوا مقدار الإحتجاج و شكله في بعض المناطق. فلقد تجاوزت ردات الفعل الشعبية برأينا في بعض الدول المعقول لتستخدم العنف، ويظهر ذلك في حرق الأعلام والسفارات بل تجاوزوا ذلك الى قتل الأبرياء.[22]

ووقع الخلط، بعد هذا التهيج انطلاقا من الإسلام، بين الرد الشرعي المقبول دينيا وبين ما لا يمكن قبوله من العنف والتهديم. أدى هذا الهيجان إلى عدم تفهم ردّة فعل المجتمعات الإسلامية في العالم الإسلامي. كان يجب على المسلمين أن يردوا الفعل وفق الأخلاق التي تركها فيهم الرسول ص. وهي أخلاق التنور والنضج والوقار والاعتدال. ان المتظاهرين من المسلمين الذين تشتعل أعينهم غضبا وتهتز قبضة أيديهم وهم يحرقون العلم الدانماركي لم يقدروا أن يمثلوا الاسلام الحقيقي. ان هذا الغضب غير الحضاري قد أخاف الكثير من غير المسلمين وأحرجهم فكان ضرره على الاسلام أكثر من ضرر أية كاريكاتور. فبعد أن كان الحق للمسلمين أصبح عليهم. وقد أدى كل ذلك خاصة في العالم الغربي الى تقوية الصورة السلبية عن العالم الاسلامي.

وبنظرة الى الحال في تركيا وهي صاحبة التجربة الديمقراطية والمتخلصة من عقدة الاستعمار نجد ان ردات الفعل لم تتجاوز حدود النضج بل يمكن القول أنها كانت أفضل من المنتظر فقد كانت أكثر ليناً . لقد ضعفت المقاومة الإسلامية خاصة في المدة الأخيرة بالتوافق مع وصول من ينسبون إلى التيار الإسلامي المعتدل إلى السلطة فولدوا لدى المواطنين ردة فعل مسؤولة وشعر المواطنون ان هناك من يثقون به ليعبر عن غضبهم. لقد أظهرت الحكومة في هذا الطور قدرة كبيرة على اتخاذ القرار الصائب والامساك بزمام الأمور.

5- الأخطار التي تنتظر العالم

هناك خطوات إيجابية في العقود الأخيرة نحو التقريب بين الحضارات وجعْل التعايش بين مختلف الحضارات يتم بصورة أحسن.

ولكن احيانا قد تؤدي هذه المحاولات التقريبية بين الحضارات المختلفة إلى منافسة متضاربة. فالاحتكاكات بين الدول - في بعض الأحيان - ومحاولة التقريب بينها يؤدي الى نشوء ما يسمى الحرب الباردة. ومن الصعب الرقابة على التضارب الحضاري المحتمل الذي يكون في الحقيقة بين العواطف . قد تُولد هذه الخطوات النتائج السلبية في الوقت الذي توجد محاولات سلمية للتقريب بين الحضارات . وقد تسبب أيضا فقد التسامح بين أصحاب الاعتقادات المختلفة والعداوة ويمكن ان تسبب الانهيار في العلاقات بينهم. ليس هناك وضع أخطر من زج الأديان في حالة منافسة وتاجيج العداوة الطائفية بين الناس . لأن المجتمعات قابلة للتحرك دائما، خاصة إذا كان الامر يتعلق بالدين أو بعبارة أخرى بالمقدسات .

نلاحظ أن عدم احترام الناس للدين يؤدي إلى تطورات سلبية في هذه العولمة. فبعد تقدم التكنولوجيا ينتشر الخبر المسيء سريعا فيسبب هذا انفعالات شديدة من قبل تابعي هذا الدين فيردون ردا قاسيا وغير مدروس. والسياسة الدولية تتأثر تأثرا سلبيا من ذلك وقد تظهر الأزمات السياسية . وقد لا تبقى هذه الأزمات على حالها - اي سياسية - وإنما قد تتعدى إلى أزمات اقتصادية، وبناء على هذا تخسر الأموال نتيجة المقاطعة .

ولا ننسى أن التطورات السلبية تؤثر في أنسجة المجتمعات بدرجة سلبية كبيرة ايضا. لأن منتسبي الأديان بأنواعها يعيشون في مختلف أنحاء العالم ، يوجد كُتل من الناس ينتسبون إلى

---

[22] ان النبي ص. كان يحرص دائما على تذكير اصحابه بعدم قتل الأبرياء في الحروب كالصيان والنساء. وانظر لزاما : *البخاري* ، كتاب الجهاد ، باب قتل الصبيان في الحرب.

الأديان المختلفة في الدول سواء كانت نامية أو متقدمة . فمثلا ، الدين الإسلامي يتواجد منتسبوه متوزعين في دول غير إسلامية ويشكلون اقليات كبيرة لربما يكون عددهم في الدرجة الثانية في تلك البلاد . يختلف هذا العدد من دولة إلى دولة ، ويتراوح ما بين مئات ألالاف والملايين. وبالتالي ان التحريضات ضد المقدسات ستمنع العيش معا بصورة سلمية في تلك البلاد حيث يكون المحرض ضدهم منزعجين دائما ويشعرون بعدم احترام مقدساتهم وخصوصياتهم ولذلك قد يحصل اي شيء في اي وقت. ومثل هذه التحريضات تنعكس سلباً على نفسية الشباب ومن ثم قد ياتي رد فعلهم عنيفا حيث يعبأ الشباب ضد الطرف الاخر فيقومون – ثأرا لدينهم وكرامتهم – بردود عنيفة لم تكن بالحسبان قد تصل لحد الاعتداء على معابد ومقدسات الطرف الآخر فيختل السلم والسلام في المجتمع بشكل قد لا يُصلح ابدا، ويتأثر الأمن الداخلي واساسات الدولة . وقد يتعدى هذا إلى دول أخرى .

إلى جانب هذا ، لا ننسى الأقليات التي تعيش في دول أخرى والذين لربما يتعرضون إلى بعض المشاكل حيث المظاهرات وردود الفعل تكون موجهة نحوهم وضدهم بل قد يتم تدنيس معابدهم وشخصياتهم ، فمثلا المسيحيون واليهود والأرمن والسريانيون حتى الغربيين إلخ... في الدول الإسلامية شاهدنا كم انزعجوا وكانوا محل سوء الظن.

إذا جمعنا هذه السلبيات ، من الواضح أنها سبب للاختلاف والأزمات والصدام بين الحضارات. والذين خططوا لهذ الصدام نجحوا في خطواتهم...سوف نخسر جميعا إذا لم يتم ايقافهم... لم يُر في تاريخ الدنيا مثل هذا الوضع حيث أن بعضا من الناس قد جعلوا العالم غير قابل للتعايش.

6- إلى أصحاب المسؤولية

أزمة الكاريكاتور التي كانت امتحانا للبشرية قد دلت على أن من لديه المسؤولية يجب عليه أن يتصرف بمستوى المسؤولية الموكلة اليه. فيتجنب تصرفات قد تؤدي إلى عمليات إرهابية هو سيعاني منها ايضا. حيث يرى مرتكب العمليات ان هذه العمليات استشهادية ومشروعة دينيا، ذلك ان هذه العمليات مدفوعة بتأويلات دينية خاطئة من قبل حركات معينه، فهؤلاء سيزداد غضبهم بعد أن رأوا الاستهزاءات - وخاصة الشباب - فيقعون في الشبكات غير الشرعية فورا، وتؤدي هذه الاستهزاءات الى حقد في أنفسهم ومن ثم ربما إلى تعقب أصحابها مباشرة. والتصرفات الاستفزازية هذه مناسبه لإجراء التعقب ولو أن الشباب لم يلتحقوا في حركات ارهابية؛ لأن الغضب في الشوارع ليس ردا منطقيا وعقلانيا بل تحكمه العواطف.

وقد يظهر الرد بصورة ما يسمى ردا قوميا. والحقيقة أن مثل هذه الانفعالات إذا بدأت لا نعرف أين، ومتى ستقف ؟ لا يعرف احد من سيتضرر، وكيف ؟ بناء على هذا ، يجب على السياسيين وزعماء المجتمعات أن يؤَمِّنوا السلام بين أصحاب المعتقدات المختلفة ويكونون على حذر دائما . من الواضح أن هذا ضروري للسلام الداخلي ومن ناحية أحترام الآخرين أيضا .

المنع من التهجم على المقدسات ليس من مهمات رجال الدين فقط . بل هو واجب على كل من يدعي احترام الآخرين ومقدساتهم . على رجال الدين أن يُسكّنوا الوضع ويدعوا الى الاعتدال ، ولكن هذا لا يكفي، فقبل كل شيء على السياسيين ورجال الدولة والصحفيين والمثقفين أن يتجنبوا مثل هذه الاستفزازات.

يجب على من يحكمون المجتمعات أن يكونوا مخلصين حتى تصبح الدنيا ذات معيشة طيبة. والطريق الى هذا يكون بان كل انسان لا يحب للآخر ما لايحب لنفسه . وهذا يستدعي منه أن يحترم الآخر ومقدساته . حينما يعبر عن رأيه يجب أن يراعي مشاعر الآخرين . وهكذا يراقب نفسه . لأنه إذا كسر قلب الآخر لربما لا يكون البدل مادي بل معنوي .

يجب على السياسيين أن يتجنبوا الحسابات التافهة كالانتخابات وجمع الأصوات . إلى جانب هذا ، يمكن أن تصنف مناهج التدريس على حسب المعتقدات المختلفة بعد تعديلات في التعليم والتربية .

وهناك مسؤولية تقع علينا نحن كمثقفين ايضا . فيجب أن نثبت أن الحرية ليست تدنيس معتقدات الآخرين رغم أننا نطالب بالحريات والحقوق . ونعلم الجميع العيش معا مهما كان دينهم . ونوقف الموجات الحاقدة التي تهدد السلم والأمن العالمي . ونجمل الحياة بتجاربنا .

و لكن تبقى المسؤولية الكبيرة في هذا المجال على الإعلام بلا شك . فيجب عليه ان يجعل احترام الأديان الأخرى من مبادئه الأساسية . ويكون على حذر من تقديم المعتقدات الأخرى أنها على الخطأ. ويضع متخصصا في هذا الدين حتى يتجنب ما يمكن أن يثير عواطف وغضب أصحاب هذا الدين . واذا لم يستطع هذا، فعليه أن يسأل أهل الذكر قبل نشر الخبر .

وفي الأساس فان المقاربة التي أظهرتها محكمة حقوق الإنسان الأوروبية في الإطار الحقوقي ستكون مثالا للكل . إن الفيلم الذي أظهر المقدسات المسيحية الثلاث ،روح القدس وعيسى عليه السلام ومريم عليها السلام، في علاقة منحرفة في استراليا في عام 1994 ، قد منع من طرف الحكومة الاسترالية. وفي الأثناء تقدم أصحاب الفيلم بشكوى إلى محكمة حقوق الإنسان الأوروبية التي أسقطت الشكوى كون الفيلم قد تجاوز حدود الحرية إلى عدم احترام المعتقدات، وأقرت منع الفيلم.[23] وفي 1966 بانجلترا منع شريط الفيديو الذي يصور الراهبة عزيزة تعاشر المسيح عليه السلام بشكل غير لائق ، وقد أقرت أيضا محكمة حقوق الإنسان الأوروبية هذا المنع ورأته صائبا .[24]كما قامت دار نشر في تركيا عام 1993 بنشر كتاب فيه تحقير لمحمد صلهم .وتطبيقا للقانون الجزائي التركي القديم المادة 175 "لا يجوز تحقير الله أو أحد الأنبياء أو أحد المذاهب أو الكتب الدينية" قدمت شكوى في حق الكاتب وحكم على هذا الأخير بعامين سجن واستبدلت العقوبة بغرامة مالية. ذهب الناشر إلى محكمة حقوق الإنسان الأوروبية التي صادقت هي أيضا على الحكم. وقد كان قرار المحكمة بعد أن بينت الواجب وبعض المسؤوليات كالتالي : يجب على حرية الاديان والاعتقاد ألا تؤدي إلى إلحاق الضرر بالغير وهو ما يوجب الابتعاد عن كل ما يؤدي إلى ذلك .

فمن المبدأ ان نعترض من لا يحترم القيم الدينية . ويعتبر هذا المنع حاجة اجتماعية.[25]

7- الخاتمة

إن هناك قيما مقدسة تصنع من الإنسان إنسانا ومن المجتمع مجتمعا حقيقيا. الناس يفهمون أنفسهم بالنظر إلى تلك القيم المقدسة، ويعرفون معنى الكائنات الموجودة في الكون والاستهزاء بتلك القيم يعد استهزاء بالبشرية كلها وتحقيرا للإنسانية أينما وجدت. وفي الحقيقة إن الاعتداء الذي يوجه لعقيدة معينة لا يعتبر اعتداء على أتباع تلك العقيدة فحسب بل هو اعتداء على كل من يحترم الإنسان، واعتداء على القيم التي تجعل من الإنسان إنسانا، واعتداء على كل من لديه انشغال بأمن العالم وسلامته. وإلى جانب ذلك فالذي يحقر مقدسات الآخرين يقيم الدليل على أنه لا يعرف معنى لمقدساته ولقيمه .

إذا لم تترسخ المقدسات في العقول والقلوب رسوخا واعيا وعاقلا فإن هذه المقدسات لا تحمل أية قيمة لدى صاحبها، ولا يمكن لصاحبها أن يدافع عنها الدفاع الذي تستحقه، كما أنه لا يمكن أن يحترم مقدسات الآخرين وقيمهم .

في الواقع لا يوجد فرق كبير بين عدم احترام المقدس وبين البقاء بلا مقدس، فكلاهما يمثل خيطا رفيعا بين الإيمان وعدم الإيمان (اللاإيمان) .

---

[23] Otto-Preminger v. Austria, 295-A (20.09.9)

[24] Wingrove v. the UK-Rep. 1996-V, fas. 23 (25.11.96)

[25] القرار المتخذ في 2005/09/13 من طرف المحكمة محكمة حقوق الإنسان الاوروبية في القضية المتعلقة بتركيا والمؤرخة في 1998 ورقم ملفها 42527.
تمت الاستفادة في إعداد هذه المعلومات من المقالة التي وردت في صحيفة "*مليت*" (*Milliyet*) بعنوان "احترام المقدس" (Kutsala Saygı) لـ"طه أق يول" (Taha Akyol) والمنشورة بتاريخ 2006/02/07.

إن الاستهزاء بقيم المجتمعات المقدسة والاعتداء عليها يعني الاستخفاف بالناس المخالفين في العقيدة، ويعني كذلك عدم القدرة على تحمل أفكار الناس الآخرين المختلفة في عصر قطعت فيه البشرية أشواطا مهمة في مجال حرية التفكير والتعبير. وإجبار الآخرين على تغيير عقائدهم الدينية بالقوة مشهد يذكرنا بالعصور الوسطى حيث كانت الكتب تحرق بالجملة لمخالفتها لقيم معينة، وحيث كان الناس يهجرون من ديارهم لرفضهم تغيير عقائدهم الدينية لأن فكرة حرية التعبير والعقيدة لم تتشكل بعد .والإنسان في عصرنا الحاضر بالتأكيد لا يريد أن يرى هذا المشهد يتكرر مرة أخرى، بل يريده أن يبقى مطوياً في ثنايا التاريخ .

ولهذا الاعتبار ينبغي أن لا يعامل الناس معاملة خاصة بسبب عقائدهم وأديانهم، وينبغي ألا يتعرضوا لأي أذى، ومن الضروري أن يمارسوا عباداتهم بكامل الحرية ويعبروا عن إيمانهم ويعيشوا وفقا لعقائدهم بشرط أن لا يمسوا بحرية الناس الآخرين .ومن الضروري أن تعمل الأنظمة الاجتماعية والسياسية على احترام عقائد الناس وأفكارهم، والعمل على مراعاة أحاسيس الآخرين ومشاعرهم في المجالات التي تتعدد فيها العقائد والأفكار .

وبتعبير آخر، على الجميع أن يعملوا من أجل مجتمع أكثر سلما ، يكون بإمكان كل فرد أن يعيش فيه وفق العقيدة التي يريدها، فهذا العالم خُلق بحيث يجد فيه كل إنسان من الجمال ومن الرحابة ما يكفيه، وليس من المعقول أن يعود الإنسان بنفسه إلى عهود القرون الوسطى الحالكة . وبالنسبة إلينا لا يوجد طريق آخر غير الحكمة والاعتدال في معالجة هذا الموضوع، هذا هو الطريق الأسلم والضروري للمحرضين وللواقفين خلفهم وللذين يسارعون بردود أفعال منفعلة ومتطرفة لا تليق بهذا العصر .

وهناك في هذا المجال مسؤولية كبيرة تقع على عاتق المسلمين، فبسبب كونهم لم يعرضوا عقيدتهم وأفكارهم وقيمهم بشكل جيد تجرأ الآخرون على إطالة ألسنتهم والنيل من النبي صلى الله عليه وسلم. والمؤكد أن العالم في الوقت الحاضر أحوج ما يكون فيه للرسالة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى العالم .